Scanné avec CamScanner

هجرة إلى الشاوية...

معاذ شطيط

Scanné avec CamScanner

لا اعلم كيف تتحول الحياة الى ابر تخز الجنب، وتنجلي عنك المظاهر فلا الطرق لصيحات الوهن على مشارف الاهواء الراكدة، يخرقها على البديهة زئير الكار المدوي في تناغم مع جلبة الدخاخين الحمراء، يخطو خلفها العربي الحمدوني غير عابئ بحركة السائق، فيجيبه بانفعال و سباب.

...ابتعد يابقر

ثم تتأرجح عجلات الكار على الرصيف فيتنبه لها "الشفور" بمنبه حاذ معلنا الركاب بالترجل على سبيل الخلاص
هناك العربي بعيدا عن عربات الحمّالة يرا مرأة خلف الزجاج تشير بإصبع طفلها ناحيته، وكأنه لم يعرفها، ربما زوجه صفية، كيف لم ايتفطن لها منذ البداية وهو لم يراد قط قبل ملثمة.
وانغمس العربي بدراعية الطويلتين في معركة النزول، وقواف" الشفور" تنهمر سبابا متقطعا..

...بهائم والله ابتعد عن الباب الباب يا..

ثم تجيبه أصوات الحمالة على العادة
... هنا يا سيدي درب سلطان يا الله... الكاريان يال زربان

Scanné avec CamScanner

ولوهلة لم يشعر العربي ببنته خدوج وهي على كتفيه تحملها غريزة الشقاوة على المراوغة، ثم أقبلة زوجه تستلم البنت من مرددة

أجي.. أجي خلي باك يخدم..

فادرك العربي المهمة التي نيطت به ،واتجه ناحية المتاع الذي تعرف عليه بسهولة، كانت تحيط به رزمة من الأكياس الخشنة و ديكان متعرقان من وبر الطريق هادي... لا لا الصندوق

وانطلقت فرقعة الصواط تلهب ضهور الأحصنة بين الممرات، فتراجع العربي بضع خطوات ثم رمى بقبضة متعرقة المتاع فوق ضهر الحمال، ما عاد الديكين الذين ضلو معلقين على كتفه، واستأنف لحضة من الإنقياد التام، راميا بنفسه من فوق الكار، ثم يتابع الحمال بكل همة وضع المتاع على العربة، بينما العربي يضغط بكامل ثقله على مقدمتها، ليزيد من سرعتها، وتمضي ساعات معدودة تسطدم عجلات العربة بسك حديدية تقطع شوط الطريق، وتجبر العربي الحمدوني على النزول ودفع العربة، فأدرك أن الوجهت قريبة، بيت عمه كبور منهنا، لا يبعد بكثير، لابد للقدر من الإرتجال، وفي كل دفعة تتحرر العجلة شيئا فشيئا، حتى بدت مآذن المعامل الضاربة في الأفق تنفث كتلة من الكربون الأسود، علم العربي بأنها معامل للسكر، ولكن زوجه صفية لم تبدي أي فعل منذ النظرة الأولى، خلف لثام بلدي تلعب المقلتان بلا نهاية تود إبصار ما هو غريب، للتو كانت أبقارها تسارع بين المروج، والأن حركات سريعة تأتي مباغثة من كل حدب و صوب، وكأنها داخل قعر مظلم، ترى العربي بزيه المرقع دخيلا على الحاضرة، تشاهد الطوب و الإسمنت كما من بكنز الدهب و الفضة، منازل و مساجد تتخيللها أحياء شعبية من دور الصفيح،

Scanné avec CamScanner

فتجيب نفسها بتساؤلات لا تعبؤها إجابة
بسم الله يا سميع يا عليم، اش هاد شي..
بينما خدوج لا تكف بالعبث بمنقار الديكان طوال الطريق، وبعد وهلة ستختفي البنيات ، وسيقبل العربي الحمدوني ومن معه إلى مستودع من ا قصدير الامع
هاهم الأن يشقون أزقة درب عمار الحي المشهور بمدينة الدار البيضاء، ذلك الحي الذي تتناثر فيه الأسلعة هنا وهناك شاحنات من مختلف الأصناف محملة بمختلف البضائع تتجه إلى ربوع المملكة، فهذه الرباط وهذه الطنجة وهذه فاس، يشد الإنتباه أشخاص يحملون السلع يجرون عرباة ، فهذا شيخ قد تقوس ضهره وقد بلغ من الزمن مبلغا ،وهذا طفل يافع رمت به الأقدار لأن يكون أدات لجر عربات محملة بالسلوع، ولا زالت أنضار العائلة مشبوهة تتحرك في كل زاوية وكل ركن، أين الوجهة هل ما زال الهدف بعيدا، أضنه إقترب بضع دقائق أو بضع أمتار ونكون في المكان المحدد، هذا هو الكريان السكر مهجر اللاجئين...

يتبع..

Scanné avec CamScanner

غنة انكسار وادع ينبعث من الأعماق مدا اعد؟ فيم يفكر؟ أتراه يجد للصمت كفلا يحتضنه في لحضة الشرود و الاستسلام! لا.. كذلك تهيء الحمدوني للحديث، فلم تصدر منه إلا زفرة ثقيلة وعاد يتابع
حوار نفسه المستتر في طي الكتمان

- أين المبيت الآن؟ ...اين الوطن؟

وردت زوجه صفية وكانها على علم بخواطره

-اصبر.. الله أيعاونك.

وهل يخفي عليها ذلك، هو يعرف كل عبارة في الموضوع، لا يكف عن التفكير فيترك الأهات تتفاقم، ثم يشير بحركة رضاء لا تعبوها اجابة، تلين أو تهتاج بما يعتري الدهن... من فورة أو هدوء، تنساب لحضات بين الفينة و الاخرى تتقاسمها أحداث يقصها العربي على وجه المزاح، تاخده أجواء
لابد له من الإفصاح عنها، لكن أين السبيل؟
والتفّت عشائر من أطفال الزقاق يتصارخون في سباب وعبث، فأراد الحمد وني أن ينهرهم، لكن الطبيعة التي ثارت داخل البنت خدوج بادرت الموقف، فنحنث تبحث في الأرض عن حجر تستعمله، حتى اذا لم تسعفها صلابة الأرض المرصوفة بشيء، شهرت لسانها سليطا زاد من حملة الأطفال وصياحهم

يا البدوية يا ..

Scanné avec CamScanner

وعلى البديهة تكأ العربي على مقدمة العربة بكامل ثقله عاملا بسرعة حركتها، وهكذا سار بين الضجة التي طلعت لها رؤوس النساء من أبواب نصف مفتوحة في دروب الضيقة،

ولم يفك الحصار الى انتصاب كهل مريب على ظهر بغلت سوداء، تتدلى على جانبها شكارة ضخمة، فمائن خطت قوائمها حلقة العراك، حتى همت النعال تخطو عرضين تلوذ بالفرار، أما العربي فلقد عرف فيه مقدم القرية، واستكمل المسير عند منعطف تحده يمينا ابنقة من القصير اللامع وكومة من نبات الصبار، تضع حدا فاصلا لطريق العربي ومن معه.

* * *

كان يتفحص الوجود في ذهول، كأنه يبحث عن شخص معين لتتجمد نظراته أخيرا عند عجوز يشاركه عكازه نفس الخطوات، ذلك ابن عمه كبور، وسعيد اخوه كيف حاله؟

دلف المتاع داخل صندوق مغبر مودعا عربة الحمال وهي تعيد نفس الحركات، تسير من دون تكاسل، كان العربي و زوجه قد وضعا لتوهما مصير الديكين تحت شفرة السكين، ومازالت صفارة المطبخ ترسل حلقات من الزغاريد تتفقء لها الأمعاء، لم يكن جميع الرجال المدعوين قد حضرو، بعد ساعة او اثنتين بدأت الأصوات ترتفع من البراريك مع حلول المغرب، ولوهلة أطلت صفية "بالصينية" ممهدة للعشاء

Scanné avec CamScanner

وأقبلت الطرقات وخطو النعال يسد فراغ البراكة على نحو مقنن، يعالجه صبيب الشاي الفاتن الذي يوقد النائم ينعش اليقظان.

تحت جلابة بلدية، اقبل المقدم ومن معه من اهالي القرية، يتوسدون دفة الباب المفروشة بالحصير، فصار الحصار شديدا على المائدة

ابعد قدميك يا..

وكأنما ثار صاحبه لهد الشتم، فرف رجليه ولكنه بدلا ان يطويهما، مدهما بانة لتستقر على صفحة وجه الحداد "ابن عيسى" فيتضاحك القوم على العادة، وتبادرهما شفتا العربي لتنعش خاطره المطرب.

هديل حمام زاجل يطوف على المدعوين، يستقر على قفا الثاملين، لم يصدق العربي بعد حين أنها زجاجات خمر حتى بدأت كؤوس الخمر بعدما ذهبت لدتها تدور سريعة لتتكئ عند العربي غير راغب في خوض جرعة تزيد من هديل الحمام، فقام يضيق باب البراكة على الضيوف، وكما لو كان يخشى رقيبا، ثم تلعب الأوثار على المائدة يعود فيها احد المدعوين إلى غنائه دون ان تتوقف انامله عن العزف.
لما انقشع الذباب وبدات الزجاجات تفصح عن قعورها الواحدة تلوى الاخرى، يمتزج رحيقها في الحلوق بجو الهجر ونار، العشق ووشمة زهر كوردة في الجبين، تمزق نياط القلوب بنداء أليم، تدهب فيه ألم المسير..
فعلها العربي الحمدوني بكل همة، رحلة الى الشاوية سرعان ماوضعت تراتيلها بين طيات الأوراق

Scanné avec CamScanner

كان كل شيء يبدو غريبا ، ينغمس في توجس وستمرا بين الباعة متأبطا حفنة من الحبوب ، تنساب الواحدة منها تلوا الأخرى عبر ثقب أحدته الزحام، وكأنها تبني مسار للعربي وهو لا يتفطن للأمر ، فيتنبه لها عبر جلبة الفراخ غلفه ،تسد رمق العيش فتقتات على الحبوب المنتشرة بين أسقاع" الرحبة" ، وعلى مدى خمسة أميال، قرب المحطة هناك تجهش القاطرة المحملة ،بصفير قار ، يعقبه هدير المطحنة في صراع، ولا زالت دواليبها تدعس حبات القمح المصلب على شكل رمل، حتا أتاه العربي بخيلا يناول صاحب المطحنة كيسا مرقع من الشعير.

هاك خود.

... ليجل البراكة

كساد وركود يصفع الجبين المتعرق دون ثقل، يتناوله العربي بمسحة سريعة وكأنه أبعد العياء السنة كلها، تعب أيام ثقيلة بطيئة، لم تعد تتخللها حتى جلسات الشاي المعتادة.. وكئوس الخمر؟ ذهبت لدتها مع آخر فرنك يسعف بطن العيال، ولا شيء يبشر بغمامة سوى طقس خانق يرفض الإنتساب لأي فصل معهود.

الجو زامت.. هاد.. الأيام

ويرد العربي في لهجة الحكيم.

هدي دنوب.. العباد

ويخطو صاحب المطحنة المتدمرة تشتكي عطبا، وكأنها تشتكي ضعف الفاقة، فيعلق صاحبها في تشاؤم

حتى البياس تصاب يارب السلامة..

آهات لا تلبث أن تخترق كل موجة عمها ما أصاب العربي وأهل القرية، تنعى المحاصيل من المطر تخترق كبد السماء فتزهق مئات الطيور معنونة بخبر الموت

Scanné avec CamScanner

لقد كان الغد المجهول شبه حلم، ترنمه أصوات المداخل وزعيق صافرة محملة بمختلف الأجناس فهذا من من فاس وذاك من طنجة، وأخر يجيب صاحبه في تودد منين نت؟

...ولاد عمرا..!

فيجيبه الأخر مزهوا، وكأنه نطوى منغير احساس، لتبدء المصافحات في جو المتحابين _ الله الله ولاد العز

هي الفطرة شيء غريزي يجتمع بينع أحضان العربي و محمد، لابد له من عناق لتمتزج روائح الأخوة الكاسدة، ثياب كثياب وفم يثير بتسامة الوجه الحزين، ولعلها أيضا قلة الحيلة، وضعف الفاقة لعلها أخر سنوات الجفاف، وما تبقى للعرب إلا نصف فرنك قد يدخره للشدة ، أوليست هذه شدة، ؟ كلا، لعل العربي لا يبالغ في وصف الحال ولكنه الجفاف، أيام عصيبة تمطر جملة واحدة، وتتعالى عشية كل يوم وفي المساجد وبين البراريك أصوات حافية تنبعث راجيتا الله من الجفاف أو لعل بعضها صمت فلا يدرى له قبيل هي كذلك كما قالتها بنت سوعيد ضلم العباد ..

أم أنها نهاية العالم، وكيف يعلم العربي أنها كذلك وقد ادخر آخر فرنك لديه، شيء غريب يلازم القرية ثم يغادر من بعيد، أهو الأمل، أم أنها الزغاريد تلعب في الهواء، المقدم ينبئ أهل البراريك بالخير

العجوز الخائن أهي خدعة أم حلم، وأين الحلم في هذا. وقد أتى الخائن العجوز بجلابته الماكرة طمعا في الرشوة.. ومن بعيد يلتئم الزمان كجمرة مشتعلة تذيب حيوية الروح وصفاء الوجه،

Scanné avec CamScanner

فترى العجوز يترنح كمن له حاجة، هو صاحب " الكارو" العجوز الشاحب الحسين، صدفة قد لا تنود كل يوم، أن يلتقي الثلاثة في كراج علال، سوق السلع، هي الطفولة وأيام الصبى

تتجدد في كل قبلة لاسعة فتترك الأثر الخفي، لكنه جلي لذا با محمد ، فتبدء القهقها تلوح في الأفق، تكسر كل غمامة أضلت الإشراق، فهذا العربي يمازح صاحبه

تكدرت مع الزلط..

وذاك يخطف القول..

وترهو الزلط..

ليتيه صاحبه بحتا عن جواب، ليته لم ينبس بها كم هي قاصية لكنه الحاج الحسين كن تشوف نت...

هذه هي صداقة الكاسدة، لا تختلف عن ناضريها لكنها شعبية كما هم أصحابها

Scanné avec CamScanner

بشاشة تخامرها صفوة عابرة، ترنمها أحرف الوجه السعيد ، لتعود خائبة بإشفاق، تضيء في عتمت الليل، تسمع طرقات السواقيط المرصوفة في الحوانيت فتثير بها حاسية المشتاق المتلهف، ثم تجري أربطة العربات ممدودة على الرصيف، أو تجدها قرب حانوت أو مستودع قديم، دروب موحشة كأنما مر بها أثر، ودواب متشردة غافية أعياها لسع السواط، موسم جديد يحل كل يوم، نشاط ليلي ينتضر بزوغ الصباح، فجر الأهوال، تنتزعه من الغفوة أصوات المعامل وطرقات النعال، دواب مسروجة تبدء يومها كالمعتاد، وأشغال تكبل نفسا عابرة، لا طاقت لها ولا حيلة هي أجواء كراج علال لا تخلو من الصحوة أم أنها صحوة لا توفي باشراق، فيشرد البال إلى غير ما نيط به، وتغرز الإبر من جديد، تنغرز في صميم العربي بحتا عن عمل، يتيه بين عشية وأخرى وسط الحلبات فيتلقى الكدمات، تعجل بنتوء عميق، قد يدوم إلى حين العثور على فرصة شغل أو التشبث بحرفة تخفي بعضا من ذلك النتوء، ولا أدري إن كانت تجتابه نغمة ألحان مخضرمة فيركض في تيه الأمل، أم أنه وحش خفي يشي بقوم الحارس المتهجد، هي الذكرى! تسوء العاشق وكأنه يرنو بعين ضافرة، شجر الندى وهي تمايل في جو النائم، تبكي القلوب، كذلك من هو نائم في ذكرى، لا يجد من يأوي اليه، يود فتح الباب لكنها ملامح غريبة لا ترحب بالنائم في ذكرى ، وحده الغروب يشعل الإحساس، في جوف الكلمات، ينكسر تارتا في عاصفة، ويهنأ أخرى في رثاء ، وهذا رثاء! ليس بالغريب على عليه ولا بالشجي، من يفهم الإشارة، من يعلم لغة الأعين، كأنه وحيد بدون أرضه وربما كذلك، أم هو صدى الأهوال، يحوم في كل مكان، يخامر الأحلام، ومذا صنع العربي الحمدوني مع حلمه، أمازال يحن للأرض،

Scanné avec CamScanner

وبنت سويعيد، هل في جعبتها ما تخمد به شضايا محترقة، أم أعياها تنفس الصعداء، و البنت خدوج وأخوها الصغير، أهي بشاشة عابرة ليس لها أثر؟ لا، كذلك بن عمهم كبور وسعيد أخوه أين أثره؟ جو الشحيح المنغلق في سبات هكذا كانت سماء قرية السكر منقبضة لايدرى لها قبيل ولا شأن، منذ مطلع أخر يوم على سوق الرحبة، وفرقة تعود فتستولي مكانة با حمد و الحاج الحسين في نفس العربي، لكن من يعلم؟ أنا يكون هذا مجرى حلم ولا قبيل له بالمنطق، وهل كان للمنطق سطوة على المطر؟ أم أنه بعض النفاق، صبية يترامون بالحجارة، ونساء تولولن من روتين قار، ورجال يشتكين ضعف الفاقة

ـهو البلاء.

وما أصعبه من بلاء

ـ مكانش شبلاء قد بنادم

وكيف لهذا الوصف أن يقع ؟ لكنها تجربة الحياة، هي التي دفعت بالمذكوري إلى شرح وصف الحال

* * *

Scanné avec CamScanner